الفنون الزخرفية والأساليب الإسلامية
في العصر العثماني

بقلم
الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٧

فهـــرســت

الموضوع	الصفحة
● القسم الأول :	
الأتراك العثمانيون قبل الاستيلاء على القسطنطينية	٢١
● القسم الثانى :	
الأتراك العثمانيون بعد الاستيلاء على القسطنطينية	
الفصل الأول : العثمانيون فى القرنين الخامس والسادس عشر بعـــد الميلاد	٣١
الفصل الثانى : العثمانيون فى القرن السابع عشر	٥١
الفصل الثالث : العثمانيون فى القرنين الثامن عشر والتاسـع عشر	٥٣
● القسم الثالث :	
الفنون الزخرفية العثمانية :	
تمهيـــد	٦٣
زخرفة الجدران	٦٩
الأوانى الخـزفية	٨٥
المنســـوجات	٩٥
الطنافس	١١٧

التحف المصنوعة من الزجاج ١٣٣
التحف المعدنية ١٤٦
التحف المصنوعة من العاج والخشب ١٥٨

فنون الكتاب :

فن الخط ١٧١
فن التصـــوير ١٩١
فن تجليد الكتب ٢١١
فن التـذهيب ٢٢١
الخـــاتمة ٢٢٧
ثبت الأشكال .. ..
المراجـــع .. ..
كشـــاف .. ..

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

تفصح الحضارات المختلفة التى مرت بالانسانية عن نفسها أكثر ما تفصح فى الآثار المادية التى تركتها وراءها والتى تتجلى فى فنونها التشكيلية المختلفة •

ويخطىء الذين يرون أن العناية بالفنون الجميلة التى تتجلى فى هذه الآثار جهد ضائع، وأن دراستها أمر لاغناء فيه ولا نفع وراءه ، اعتقادا منهم بأنها على هامش الحياة وليست فى صميمها • ولكن الواقع غير ذلك ، اذ أن لهذه الفنون قيمة كبيرة ، ويكفى أن نذكر أن العناية بها هى الفارق الواضح بين الانسان والحيوان ، والميزة التى تسمو بها حياتنا فوق حياة البهائم ، وان الاهتمام بها يصفى الذوق ، ويرهف الحس ، ويذكى فى النفس حب الجمال ، وهذه عناصر لا غنى لنا عنها ان شئنا أن نحيا حياة انسانية راقية •

والحضارة الاسلامية هى الحلقة الأخيرة من حلقات تلك السلسلة الطويلة من الحضارات التى مرت بها الانسانية منذ عصور ما قبل التاريخ حتى أشرق الاسلام بنوره على أيدى عرب الحجاز •

والفن الاسلامى يعتبر من أبرز صور هذه الحضارة ، وقد كان هذا الفن فكرة فى رءوس العرب فى عهد النبى محمد صلوات الله عليه وعهد خليفتيه أبى بكر وعمر من بعده ، كان فكرة أوحى بها القرآن الكريم على لسان هذا النبى العظيم عندما عرف الناس أن فى المخلوقات جانبا ليس له نفع مادى بل يتجلى فيه عنصرى الجمال والزينة وهما لباب الفنون الجميلة ، أى أنه فتح الأذهان الى أهمية الفن فى الحياة (١) • وفى الحق أن الفن لخير ما يسمو بالانسان فوق مستوى الحيوانية ، وخير ما يحقق للحياة الانسانية انسانيتها •

ولم تخرج هذه الفكرة الى حيز الوجود الا فى أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان بعد أن خفت حدة الفتوحات الاسلامية ، وأخلد معظم العرب الى السكينة والسلم ، وتدفقت عليهم الثروة من كل حدب وصوب فأخذوا يخرجون من بداوتهم ، ويستبدلون دورهم القديمة بقصور فخمة ، منمقة الجدران ، موزونة الأبعاد • وقد عز عليهم أن تكون بيوتهم أفخم من بيوت الله فاتجهوا الى المساجد يرفعون من شأنها بعدا بها عن مواطن الاستهانة اذا ما قورنت ببيوتهم أو ببيوت الله التى شاهدوها فى البلاد التى فتحوها •

وتبلورت هذه الاتجاهات الجديدة بشكل واضح فى عصر الدولة الأموية فى الشام التى حرص رجالها على ألا يكون مظهرهم أقل من مظهر الأعاجم ــ على حد تعبير معاوية بن أبى سفيان مؤسس هذه الدولة حتى لا يستخفوا بهم فأقبلوا على التشييد والتعمير والتصنيع ، وقد استعانوا فى ذلك بالصناع والفنانين فى البلاد التى دانت لهم ، ومن هنا تجلت

---

(١) يقول الله تعالى فى سورة النحل فى الآيات ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ : « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تاكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغية الا بشق الأنفس ان ربكم لرءوف * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون • »

فى المنشآت والصناعات الاسـلامية الأولى ، أو بعبارة أخرى فى الفن الاسلامى الأول الروح البيزنطية ، والروح الساسانية •

وقويت الرح الساسانية أو الايرانية فى العصر العباسى الأول (١) لأن الفرس قد عاونوا على قيام الخلافة العباسية ، ومكنوا السفاح وأبا جعفر المنصور ومن جاء بعدهم من العباسيين من الامساك بزمام الأمر وتأسيس خلافة اسلامية جديدة ورثت الخلافة الأموية سالفة الذكر •

وفى العصر العباسى الثانى ظهرت بشائر عنصر فنى جديد لم يكن واضـحا من قبـل هو العنصر التركى الذى جاء مع الأتراك (٢) الذين استقدمهم خلفاء هذا العصر بكثرة من أواسط آسيا الى مقر الخلافة فى العراق عندما أنسـوا فيهم القوة والشجاعة ، وانعدم النزعة القومية فيهم

---

(١) اصطلح المؤرخون على تقسيم عصر الخلافة العباسية فى العراق الى اربعة عصور العصر الأول أو العصر الفارسى الأول ، والعصر الثانى أو العصر التركى الأول ، والعصر الثالث أو العصر الفارسى الثانى أو عصر البويهيين ، والعصر الرابع أو العصر التركى الثانى أو عصر السلاجقة •

(٢) كان الأتراك يسكنون فى الأراضى الواسعة الممتدة بين حدود فارس والصين فى اقليم التركستان ، وقد كانت قبائلهم وعشـائرهم حلقة الاتصال بين هاتين الدولتين العظيمتين ذوات الحضارات العريقة ، وقد تعلموا منهم أساليب الحكم والادارة ، وتلقنوا على أيديهم أصول الحضارة مما أورثم استعدادا لانشاء الدول القوية فى مسـتقبل حياتهم • وقد خضع الأتراك فترة من الزمن لحكم أسرة تانج Tang الصينية (٦١٨ ـ ٩٠٧ م) ، وقد كانت بلاد الفرس ـ قبل الاسلام ـ حجر عثرة فى سبيل تقدمهم نحو الشرق • وفى النصف الأول من القرن السـابع الميلادى طرق العرب أبواب فارس ثم اسقطوا الدولة الساسانية وكان لهذا الفتح العربى أبعد الأثر فى مستقبل الأتراك ، اذ وصلت جيوش العرب الى مواطنهم حاملة لهم الدين الجديد الذى أتى به محمد صلوات الله عليه ، وكانوا يدينـون حينئذ بالشـامانية وبالبوذية التى تسربت اليهم من الهنـد وبالزرادشتية والمانوية التى تسربت اليهم من ايران، والقليل منهم كانوا يدينون بالمسيحية على المذهب النسطورى ، وعندما وصل اليهم الاسلام رقت له قلوبهم ، ووجدوا فيه ماينناسب عقليتهم نظرا لبساطته ، وقد اعتنقه فريق منهم فى اخلاص ، ولم يأت القرن الخامس الهجرى أو الحادى عشر الميلادى حتى تم اعتناقهم للاسلام جميعا • ويمكن أن نعتبر أن دخولهم فى الاسلام هو فى الحقيقة خروج لهم من ضيق الدنيا الى سعتها ، فقد عز جانبهم بهذا الدين ، وكان اسـلامهم حدثا هاما فى التاريخ الاسلامى بل فى التاريخ عامة •

التى كانت قوية فى نفوس الفرس ، وكانت تهدد كيان الخلافة . ولاعجب فى ذلك فقد كان للفرس حضارة مزدهرة قبل الاسلام هى حضارة الدولة الساسانية ، وكان لهم دين يعتزون به ويعتبرونه من أقوى مظاهر قوميتهم هو دين زرادشت ، وجاء العرب فقضوا على هذا الدين وأسقطوا تلك الدولة ، وعملوا على محو آثار تلك الحضارة ، ومن هنا نجد أن الفرس قد تلمسوا كل سبيل لاحياء مجدهم التالد (١) أما الاتراك فلم تكن لهم دولة موحدة بل كانوا قبائل متفرقة ، وكلمة « ترك » نفسها ظهرت أول ما ظهرت فى القرن السادس الميلادى وكانت علما على شعب من البدو يعيش فى أواسط آسيا ، أما دلالتها على الجنس التركى

---

(١) يلاحظ أن الايرانيين منذ أواخر القرن الأول الهجرى أخذوا يتطلعون الى الاستقلال السياسى عن العرب . وأخذ جماعة منهم يعملون على اذكاء روح القومية الايرانية ، ولتحقيق هذا الهدف ساعدوا على قيام الخلافة العباسية ولم يصرفهم عن المضى قدما للوصول الى هدفهم فتك الخليفة المنصور بأبى مسلم الخراسانى أو نكبة الخليفة الرشيد للبرامكة ، وقد استفادوا بالفرصة التى سنحت لهم بقيام الفتنة بين الأمين والمأمون فاخذوا جانب المأمون وضحوا فى سبيل نصرته بأموالهم وأرواحهم ولا عجب فهم أخواله . ومات الأمين وثبتت أقدام المأمون فى الحكم ، وكوفىء الايرانيون على معاونتهم له بتعيين طاهر بن الحسين واليا على خراسان وقد وضع هذا أول لبنة فى صرح الاستقلال السياسى لايران . فخراسان جزء كبير من ايران وفيها بدأت الثورة ضد الأمويين ومنها خرج أبو مسلم ضد العباسيين وفيها مات الرشيد (فى طوس احدى مدنها) ومنها أراد المأمون ان يحكم العالم الاسلامى لكنه عدل عن ذلك وعاد الى بغداد . وأخذت الحركة الاستقلالية تنمو فى ايران فى ظل الأسرات التى حكمت فيها بعد الطاهريين ، فالدولة الصفارية كان مؤسسها يعقوب بن الليث الصفار يطمع فى أن يعيد بناء المدائن حتى تصبح من جديد عاصمة عظيمة تعيد الى الأذهان مجد الساسان ، وقد عمل على احياء الأدب الفارسى ولم يكن يقبل من الشعراء أن يمدحوه باللغة العربية ، فهو فى الحقيقة واضع أساس الاستقلال الثقافى ، ولم ينس الاستقلال السياسى فقد أعلن الحرب على الخليفة العباسى وهدد بغداد بالغزو لكن المنية عاجلته ، والدولة السامانية (٨٧٤ ـ ٩٩٩ م) حرصت هى الأخرى على احياء الروح القومية الايرانية بل يمكن اعتبارها المؤسسة للحركة الاستقلالية الايرانية بمعناها القومى اذ ربط السامانيون حاضرهم بماضيهم ووصلوا نسبهم بالبطل الايرانى بهرام جوبين ، وكذلك حرص البويهيون (٩٣٢ ـ ١٠٥٦ م) على ربط نسبهم بالملوك الساسانيين وقد قاموا أول ما قاموا فى اقليم فارس أى فى غرب ايران فى حين قام الطاهريون والصفاريون من قبلهم فى شرق ايران .

عامة أو بعبارة أخرى على الأتراك جميعا فلم تنشأ الا فى ظل الاسلام (١)، فلقد حاول الأمويون ادخالهم فى حظيرة هذا الدين (٢) •

وقد استخدم الخلفاء العباسيون الأتراك فى الجيش ، وسرعان ما برزوا فيه ووصلوا الى مراكز القيادة بل أصبحوا حكاما لبعض الأقاليم مثل مصر وايران ، ويكفى أن نشير الى الطولونيين والاخشيديين الذين حكموا مصر ، والى الغزنويين الذين حكموا ايران ونشروا الاسلام فى الهند •

ولعل أبرز ما أسهم به الأتراك فى مجال الفن هو ذلك الطراز الزخرفى المعروف باسم الطراز الثالث من طرز سامراء ، ذلك الطراز الذى تبلورت فيه الاتجاهات الفنية للزخرفة الاسلامية الخالصة من شوائب الاستعارة من الفنون السابقة على الاسلام ، والذى نبتت منه « الأرابسك » (٣) Arabesque

والأرابسك أو التوريق كما ينبغى أن تسمى جديرة بان نقف عندها وقفة قصيرة فهى ـ على حد تعبير مؤرخى الفن من الأوربيين ـ لغة الفن الاسلامى ، وفى الاعتراف بوجودها وفى اسمها الذى تحمله عند الأوربيين أبلغ رد على الذين أنكروا على هذا الفن شخصيته واعتبروه صورة متأخرة من صور الفن البيزنطى •

---

(١) Lewis, The Emergence of Modern Turky, London, 1968, p. 8.

(٢) يذكر ياقوت الحموى فى معجم البلدان (جـ١ ص ٨٣٩ من طبعة اوربا) ان الخليفة الاموى هشام (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ) أرسل الى ملك الترك ـ ولا يذكر ياقوت اسمه أو عاصمة بلاده ـ يدعوه الى الدخول فى الاسلام •

(٣) الأرابسك لفظ أجنبى أطلقه مؤرخو الفن من الأوربيين على نوع معين من الزخرفة الاسلامية والكلمة العربية التى ينبغى أن تستعمل بدلا من هذا اللفظ الذى شاع بين مؤرخى الفن الاسلامى من العرب هو ـ فى اعتقادنا ـ كلمة التوريق سواء كانت العناصر الزخرفية نباتية أو كتابية حيوانية أو هندسية ، لأن هذه الكلمة أصدق فى الدلالة على هذا النوع من الزخرف الذى أبرز ما فيه هو ظاهرة النمو ، والتوريق ما هو فى الحقيقة الا نمو وتكاثر • ولاتزال كلمة التوريق Tauriquos مستعملة فى اللغة الأسبانية حتى اليوم للدلالة على هذه الزخرفة •

والتأمل فى هذه الزخرفة يكشف لنا عن أنها تقوم أكثر ما تقوم على العناصر النباتية ، وهذه لم يبتكرها الفنان المسلم ولكنه ابتكر طريقة جديدة فى رسمها وترتيبها ترتيبا غير مسبوق ، وتنسيق أجزائها تنسيقا جعلها تبدو وكأنها شىء جديد وماهى كذلك ، هى فى مظهرها شىء جديد ولكنك لا تجهل أصله ولا تستطيع أن تنكر عليه شخصيته الجديدة الواضحة القوية • ان الفنان المسلم لم يبتكر وحدات زخرفية بل رسم الأزهار والأشجار والفروع والأغصان والأوراق والسيقان والطيور والحيوان بعد أن حورها تحويرا كادت أن تفقد معه صورتها القديمة ولكنها وان بعدت عن هذه الصورة فلا يزال لها جمال فنى يدل على قدرة مبدعها وينطق بصفاء قريحته •

الا أن هذا التحوير والبعد عن الطبيعة فى الرسم قد أسىء فهمه وظن البعض أنه جاء نتيجة لضعف فى قوة الملاحظة عند الفنان المسلم ، ونتيجة لعجز فى مقدرته على النقل عن الطبيعة نقلا صادقا وهذا خطأ جسيم وجهل مطبق بفلسفة الفن الاسلامى وباتجاهات الفنان المسلم ، فهو تحوير مقصود لذاته من غير شك ، فلقد تعلم هذا الفنان من القرآن الكريم أن هذا العالم المتغير ، المتطور ، مآله الى الزوال المحتوم بمن فيه وما فيه ولا يبقى الا الله وحده فهو الذى لا يلحق به فناء أو زوال ، فلماذا يحاول الفنان المسلم أن يخلد بفنه ما هو محكوم عليه بالفناء ؟؟ لماذا يرسم الوحدات الزخرفية كما هى فى الطبيعة مادامت هذه الصور سوف تزول يوما ما ؟؟ لماذا لا يعبث بصورة هذه الوحدات ويعطيها ـ خلال عبثه بها ـ صورا جديدة ، ويكون من أجزائها رسما يخضعه لأصول الجمال الفنى ؟ ان الهدف الحقيقى من الفن عنده هو تجميل الحياة ، والتجميل يتحقق بالنقل الصحيح من الطبيعة وبالتحوير على السواء ، وقد اختار الفنان المسلم التحوير لكى يرتفع فوق مرتبة التقليد • وهكذا نرى أن للفنان المسلم اتجاها جديدا لم يكن معروفا قبله ، هو أن الفن ليس بالنقل الصادق عن الطبيعة بل هو فى ابتكار صور جديدة تخضع لأصول الجمال

الفنى ، وتحملنا بألوانها وأشكالها وظلالها وأضوائها الى عالم نهرب اليه من متاعب الحياة ، ونلجأ الى حظيرته كلما أثقلت كواهلنا أعباء السعى وراء لقمة العيش ، الى عالم السحر والجمال ، الى العالم الذى ننسى فيه همومنا ؛ ونستمتع تحت سمائه بالهدوء والنشوة والانشراح والغبطة • لقد اندفع الفنان المسلم وهو يرسم « الارابسك » وراء خياله الخصيب ولكنه أخضع هذا الخيال الى قوانين التوازن والتقابل والتماثل والاشعاع وهى جميعا من الاسس الرئيسية التى يقوم عليها فن الزخرفة ، فخرجت زخرفة التوريق من بين يديه رائعة ، تشدنا الى الوقوف عندها كلما وقع النظر عليها •

وخلال العصر العباسى الثالث أو بعبارة أخرى خلال عصر البويهيين عادت الروح الايرانية الى الظهور فى الفن الاسلامى ، ولكن سرعان ما استعادت الروح التركية قوتها فى العصر الرابع والأخير من عصور الخلافة العباسية فى العراق أو بعبارة أخرى خلال عصر السلاجقة •

والسلاجقة عشائر تركية تفرعت من قبيلة الغز التى كانت نازلة فى اقليم القرغير فى أواسط آسيا •

وقد استمدوا اسمهم من زعيمهم « سلجوق » الذى كان قائدا لجيش أحد ملوك الترك فى تلك المنطقة، وقد هاجر من وطنه عندما أحس بروح الحسد تسرى فى نفس رئيسه لأنه كان محبوبا دونه من رجال العشيرة ـ هاجر الى منطقة ما وراء النهر ، وهناك دخل فى الاسلام ، وهناك أيضا التقى بزعيم تركى آخر هو محمود بن سبكتكين أو محمود الغزنوى أمير غزنة ، وقعت بين هاتين العشيرتين التركيتين حروب تشتت بعدها شمل السلاجقة ، ولكن ما كاد يظهر فيهم زعيم جديد هو « طغرلبك » حتى جمع شملهم واعتبر المؤسس الحقيقى لدولة السلاجقة ، وقد اتخذ من مدينة « مرو » عاصمة له ، وأخذ يوسع أملاكه على حساب جيرانه حتى أصبحت له مملكة عظيمة دانت لها معظم البلاد وغدا « طغرلبك » أقوى شخصية فى العالم الاسلامى ، الأمر الذى دفع بالخليفة العباسى

القائم بأمر الله الى الاستنجاد به لكى ينقذه من ظلم البويهيين ، ولبى طغرلبك الدعوة وزحف الى بغداد ودخلها على رأس جيشه العظيم وقضى على البويهيين ووثق علاقته بالخلافة العباسية .

وتوفى طغرلبك وتزعم السلاجقة بعده « الب ارسلان » الذى انتصر على البيزنطيين فى موقعة ملاذكرد سنة (٤٦٣ هـ ١٠٧١ م) وقد كان من أهم نتائجها نشوء دولة سلاجقة الروم وانكماش دولة البيزنطيين فى القسطنطينية والقرى المحيطة بها ، ثم هجرة كثير من الاتراك الى الأناضول حاملين معهم مقومات حضارتهم المادية والمعنوية : من خيامهم وخيولهم وجمالهم وعجلاتهم وأسلحتهم وطراز ملابسهم ، ومن خرافاتهم وأدبهم وعاداتهم والدين الجديد الذى اعتنقوه ، وعقائد الطرق الصوفية التى كانت منتشرة فى البلاد التى وفدوا منها من بكتاشية ومولوية وقادرية ونقشبندية . وهذه الحضارة كما يبدو حضارة قبائل رحل من التركستان ومن خراسان ، واذا نحن قارنا بينها وبين حضارة سكان الأناضول فى ذلك الوقت وجدنا الأولى أعظم رقيا وأرسخ قدما ، ومن هنا سرعان ما أصبحت تلك البلاد أرضا تركية بكل معنى الكلمة اذ سيطرت عليها حضارة السلاجقة سيطرة تامة .

ولقد كان السلاجقة بصفة عامة من أكبر مشجعى الفن ، يتذوقونه، ويضنون به ومن حسناتهم أنهم منحوا الصناع والفنانين تأييدهم وتشجيعهم، وأسبغوا عليهم رعايتهم حيثما حلوا حتى يسيروا فى اعمالهم الى الأمام مسترشدين بتوجياتهم الفنية التى ورثوها من بيئتهم الأولى أو اكتسبوها من اتصالاتهم بجيرانهم ، ولقد ترتب على هذه السياسة أن ظهر لهم فن واضح المعالم ، بارز الشخصية هو الفن السلجوقى ، وكانت أبرز مراكزه فى العالم الاسلامى مدن : هراة واصفهان ، والرى وقاشان وبغداد والموصل وحلب وقونية .

وعند هذه المدينة الأخيرة نحب أن نقف قليلا فقد كانت بين سنتى

(٤٧٠و٧٠٨ هـ ١٠٧٧ ـ ١٣٠٨ م) عاصمة لدولة سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى ، وقد كان هؤلاء احدى الدعامات القوية التى استند اليها الأتراك العثمانيون فى مسيرتهم عبر التاريخ •

وقد عنى السلاجقة بتجميل مدينة قونية فأنشئوا فيها المساجد والمدارس والقصور والأسواق والخانات والحمامات كما أنهم أحاطوا المدينة بسور من الحجر به الأبراج والأبواب وأصبحت بفضلهم من أعظم مراكز الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى ، ولاتزال بها حتى اليوم بقايا من هذه الحضارة •

واذا نحن استعرضنا فى ايجاز فنونهم الزخرفية وجدنا أنهم فى زخرفة الجدران قد برعوا فى فن الحفر على الحجر والجص ويكفى أن نشير أولا الى أسوار مدينة قونية الحجرية التى ترجع الى سنة ٦١٩ هـ ١٢٢١م والمدعمة بأبراج كثيرة والمزينة برسوم حيوانية بارزة • ونشير ثانيا الى قصر السلطان علاء الدين قيقباد فى تلك المدينة الذى ظلت أطلاله قائمة حتى سنة ١٩٠٧ م ثم أخذت تتلاشى تدريجيا لعدم العناية بترميمها ، وقد نقلت بعض المنحوتات الحصية والحجرية الى متحف تشيلينى فى اسطنبول ولعل من أجمل ما نشاهده فى هذه المنحوتات رسم فارسين أحدهما يهاجم أسدا والآخر يصارع تنيناً •

ومن طرق زخرفة الجدران التى أحبها سلاجقة الروم الفسيفساء الخزفية (١) Fayence Mosaic التى تركوا لنا منها أمثلة تنتزع الاعجاب من كل من يراها ، ويكفى أن نشير الى فسيفساء مدرسة صيرجالى التى شيدت سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) وتتضمن هذه الفسيفساء الخزفية اسم الصانع « محمد بن محمد بن عثمان البناء الطوسى » والكلمة الأخيرة تدلنا على أن الصانع ايرانى أو من أسرة ايرانية أو عاش فترة من حياته فى

---

(١) انظر ص ٧٢ من هذا الكتاب •

مدينه طوس بايران ، والواقع انه منذ عصر الغزنويين والفن الايرانى الاسلامى يلعب دوره فى الفن التركى ، واذا كان هؤلاء الغزنويون أتراكا فى جنسهم الا أنهم ايرانيون فى ثقافتهم وفنونهم ، وقد ورث سلاجقة الروم عن الغزنويين هذا الاتجاه فاستعانوا بالايرانيين ، وفسيفساء المدرسة سالفة الذكر تؤيد ذلك •

وقد كانت صناعة المنسوجات عند سلاجقة الروم متقدمة تقدما عظيما يشهد به تلك القطعة الرائعة المنسوجة من الحرير الموشى بخيوط الذهب والمعروضة في متحف الغرفة التجارية فى مدينة ليون بفرنسا والتى تزدان بأشرطة فيها دوائر تنطوى على رسوم أسود متدابرة مرسومة فوق أرضية نباتية ، كما أن بها كتابة نسخية تتضمن اسم سلطان قونية علاء الدين قيقباد •

ولقد زار الرحالة الايطالى المشهور ماركوبولو آسيا الصغرى فى عهد سلاجقة الروم وأشار فى رحلته الى أن تلك البلاد تنتج أجمل وأفخم انواع الطنافس (١) Piple Carpets فى العالم ، وقد وصلت الينا بالفعل أمثلة من طنافس هذا العصر معروضة فى متحف الفن الاسلامى فى اسطنبول (متحف الأوقاف سابقا) وأصلها من مسجد علاء الدين فى قونية ، ومن المحتمل جدا أن تكون قد صنعت خلال القرن الثالث عشر الميلادى لكى تفرش فى ذلك المسجد الذى بنى سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) ومن هنا يمكن أن نعتبرها أقدم الطنافس الشرقية الاسلامية التى وصلت الينا • وأبرز ما يميز هذه الطنافس طغيان الروح الهندسية فى رسم زخارف متن الطنفسة Field سواء كانت هذه الزخارف من العناصر النباتية أو كانت أشكالا هندسية ، أما حاشية الطنفسة Border فقد زينت بالخط الكوفى المزبع الذى تتجلى فيه الروح الهندسية كذلك •

---

(١) انظر ص ١١٩ من هذا الكتاب •

وقد بلغ سلاجقة الروم فى فن الحفر على الخشب درجة عالية من الاتقان تتجلى لنـا فى تحف كثيرة وصلت الينـا من عصرهم ، نرى فيها الأطباق النجمية ، والعناصر النباتيـة ، والكتابات الكوفية والنسخة التى تضمن بعض آيات من القرآن الكريم •

ويستوقف النظر فى زخارف هذه التحف وتلك العمائر السلجوقية مانشاهده فيها من رسوم الكائنات الحية ، وقد يبدو هذا متعارضا مع الرأى الشائع من أن أهل السنة ـ والأتراك منهم ـ على عكس الشيعة يكرهون تصوير الكائنـات الحية فكيف نراهم هنا قد زينوا العمـائر والأقمشـة والأخشاب بصور آدمية وصور حيوانية منها المجسم ومنها غير المجسم •

والواقع أن التفرقة بين أهل السنة والشيعة فى موقف كل منهمـا من تصوير الكائنات الحية أمر لا أساس له من الصحة ، وسوف نوضح ذلك عند كلامنـا على فن التصـوير فى هذا الكتاب ولقد سار سلاجقة الروم فى هذا الفن على نهج ما ورثوه عن أجدادهم الأولين فى موطنهم الأصلى ـ بلاد التركستان ، كما انهم تأثروا أيضا بالتصوير البيزنطى الذى وجدوه سائدا فى آسيا الصغرى ـ تلك البيئة الجديدة التى قدر لهم أن يعيشوا فيها ، وقد وفدوا اليهـا ومعهم الكثير من اتجاهات التصـــوير الايرانى الذى عرفوه منذ استقروا فى ايران قبل تأسيسهم لدولتهم فى الأناضول •

وبعد فقد ورث الأتراك العثمـانيون سـلاجقة الروم فى وطنهم ، وساروا على نهجهم فى فنونهم الزخرفية ، وقد لعبوا فى العالم الاسلامى ـ شرقه وغربه ـ دورا عظيما كان له أبلغ الأثر فى حياة المسلمين عامة •

ولكن الذى يؤسف له أن هذا الدور لم يلق من العناية بدراسـته ما هو جدير به ويكفى أن نذكر أن مكتبتنا العربيـة ليس فيها الا القليل النادر الذى يكشف عن بعض اجزاء هذا الدور ، ولا يتناول أبعاده كلها أو يمس زواياه جميعا •

وفى الصفحات التالية محاولة لاظهار الجانب الفنى فى هذا الدور ، وسعى وراء ابراز قيمته ، وعرض لصفحة من صفحات الفن الاسلامى .

والله أسأل أن أوفق الى ذلك ، والا فحسبى أن أكون قد وجهت النظر الى تلك الفترة من حياة أمتنا الاسلامية التى عاشت فيها قرونا عدة .

سيدى جابر

محمد عبد العزيز مرزوق

القسم الأول

الأتراك العثمانيون قبل استيلائهم على القسطنطينية